

اجتهادات الرأسمالية تُجدد نفسها

لم يطلع من يتوقعون انهيار النظام الرأسمالي، كلما حدثت أزمة كبيرة في معاقله، على الكتابات الجادة والعميقة عن قدرة هذا النظام على تجديد نفسه. وبعض أهم هذه الكتابات بأقلام يساريين ناقدين لهذا النظام، أو معادين له، مثل الراحل الكبير د. فؤاد مرسى الذى تقترب الذكرى الثلاثون لرحيله عام 1990. كان د. مرسى أحد أهم قادة الجيلين الثانى والثالث فى الحركة الشيوعية المصرية، ومن أبرز مُنْظَرِيهَا. ولأنه رجل علم ومعرفة، وليس سياسيا فقط، لم ينكر واقع فشل النموذج السوفيتي، ولم يكتف بمحاولة استيعاب دروسه، بل سعى إلى فهم عوامل تفوق الرأسمالية فى كتابه المهم الرأسمالية تجدد نفسها الذى صدر قبيل وفاته عام 1990 فى سلسلة عالم المعرفة. يتضمن هذا الكتاب تحليلا عميقا للتغيرات الكبرى التى شهدتها العالم فى مرحلة الحرب الباردة، والعوامل التى أتاحت للغرب الانتصار فيها، وفى مقدمتها قدرة الرأسمالية على تجديد نفسها، وتطوير أدواتها، وإعادة تنظيم علاقاتها الإنتاجية. ويحتاج من يكتبون أو يتحدثون الآن عن أزمة الرأسمالية فى ظل تداعيات انتشار فيروس كورونا، خاصة من يتوقعون نهايتها، إلى قراءة هذا الكتاب الذى ثبتت صحة المجادلات الأساسية فيه على مدى ثلاثة عقود. وهذا قليل عن كثير يتعين أن نذكره لمؤلفه، الذى بقى أمينا على مبادئه، ولم يُغيره الانتقال من مواقع المعارضة إلى مقاعد السلطة. ومما يُذكر له على هذا الصعيد استقالته عندما اختلف مع سياسة حكومة د. عزيز صدقى التى كان وزيرا للتموين والتجارة الداخلية فيها (من يناير 1972 إلى مارس 1973). فقد اعترض

على فتح الباب أمام استيراد سلع كانت تُعد ترفيحية في ذلك الوقت، مثل الملابس والعطور وأدوات التجميل التي كان شارع الشواربي في وسط القاهرة مركزها الأساسي⁰ وعندما وجد أنه غير قادر على تغيير هذه السياسة، استقال في هدوء. وكان في موقفه ذاك تنبيه مبكر إلى خطر ماُعرف بعد ذلك بالانفتاح الاقتصادي حين يحدث بلا رؤية واضحة. كما كان كتابه هذا الانفتاح الاقتصادي الصادر عام 1976 أول عمل تحليلي في هذا المجال، الذي خاض فيه كُثُر بعده.